غسان كنفاني أديباً مقاتلاً ...

الثوري يتعمّد بالدّم !

بقلم أحمد محمد عطية

كثيرا ما فكرت بأن الثورة الفلسطينية المسلحة ، يمكن تلخيصها ـ بعد طرح انتقادات أصدقائها وأعدائها ـ في أنها ميلاد جديد لنوعية جديدة من الثوري العربي ، ميلاد يرد الاعتبار للكلمة وللفكر الثوري ، فبالعنف والدم يتعمد الثوري العربي الجديد ، الثوري المقاتل بالكلمة وبالسلاح ، بالفكر وبالفعل ، بعد ان خيمت عليه لغة الكلام حتى ابتذلت وكف عن الفعل زمنا طويلا منذ حقق بالدم حرية الجزائر وركن الى اسلوب الانقلابات والثورة « من فوق » والتبرير والتهليل والاندفاعات الانفعالية . وعندما كانت الثورة الفلسطينية منتصرة ومتقدمة لغسل عارنا الراكدين في بيوتنا نستجدي الاخبار او نتطلع الى السماء في انتظار معجزة لا تجيء، كان الكل معها يشيد بها ويتمسح فيها ، أما عندما انتكست الثورة بفعل أعدائها وسكوت أصدقائها وايضا بسبب أخطائها كمولود جديد يحمل اخطاء البدايات وتراث العمل الثوري العربي مشاكله وخلافاته ـ عندما انتكست الثورة الفلسطينية بعد مذابح سبتمبر (ايلول) ١٩٧٠ ، بدا الجميع في رؤية اخطائها وفي الانفضاض من حولها ـ أما غسان كنفاني فهو الانموذج الرائع للثوري الكامل ، الثائر أبدا، في المد والجذر الثوريين ، في الركود والانتصار والانتكاس . لذا كان مدخلي الى هذه الرؤية للثورة الفلسطينية من خلال تجربة غسان كنفاني الثورية العظيمة . كنت اتابعه ـ على البعد ـ واعجب به هو البطل العبقري بين المصابين بالكساح وهزال الفكر والكلمة والعقل ، ولعل هذا ما دعاني الى كتابة تلك المقالات والدراسات المتعددة في أدبه ونضاله . (١) لانه الكاتب الذي كانت قضيته هي حياته . هذا النموذج الفذ لاديب القضية الذي افتقده الادب العربي الحديث في طنين الكلمات الجوفاء ذات الرنين الصاخب الكاذب.

غسان كنفاني الصحفي والاديب والفنان والسياسي ، ذلك الرجل الفذ المتعدد المواهب في فنه ، الرائد في دراساته النقدية ، اليه يعود الفضل في اكتشاف ادب المقاومة وشعراء المقاومة في الارض المحتلة ، وعن طريق كتابه الرائد « أدب المقاومة في فلسطين المحتلة» ـ اول مرجع عربي عن أدب المقاومة الفلسطينية في الارض المحتلة الصادر قبل النكسة عام ١٩٦٦ عن دار الاداب ـ وعنه عرف العالم لاول مرة باسماء محمود درويش وسميح القاسم وسالم جبران وغيرهم من شعراء المقاومة ، ذلك الكتاب الذي استغرق عامين من جهد غسان كنفاني وعمره . وكان ايضا رائدا في ميدان دراسة الادب الصهيوني بكتابه « في الادب الصهيوني » الصادر ـ في عام النكسة ـ عن مركز الابحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية ، سلسلة دراسات فلسطينية ، العدد ٢٢ ـ فكان هذا الكتاب ايضا «أول دراسة عربية بقلم عربي وباللغة العربية ، في الادب الصهيوني باساليبه السياسية والعدوانية .. » كما وصفه بحق الدكتور انيس صايغ في تمهيده للكتاب ، وقد تناولت هذا الكتاب بالتحليل والنقد في دراسة سابقة (٢) . أضف الى ذلك التجديد الفني في الشكل الروائي بروايته القصيرة « ما تبقى لكم » التي تعد واحدة من أعظم الروايات العربية الحديثة مسايرة للتكنيك الحديث في الرواية العالمية من حيث تداخل الازمنة والاماكن وتقطيع الحدث وتدفق تيار الوعي والكتابة دفعة واحدة دون فصول أو فواصل ،مع تعدد الضمائر والرؤى . وفي العمل الصحفي قدم غسان كنفاني سلسلة تحقيقات صحفية هامة بمجلة « الحرية البيروتية تحت عنوان « محاولة لاكتشاف العقل الصيني » (١٩٦٦) في أعقاب رحلته الى الصين الشعبية التي اعتقد بأنها اسهمت في اكمال فكر غسان كنفاني الثوري.

لقد صمم غسان كنفاني ـ كما فعل « حامد » بطل روايته « ما تبقى لكم » ـ على تحدي العدو ومقابلة العنف بالعنف ،وايقن كما قال فانون « ان الانسان المستعمر يتحرر في العنف وبالعنف»(٣) انه يتحدى قتل العدو بقتله ، يتحدى الموت بالموت ، لقد وجد في العنف والدم قضيته ، فوهب لها حياته . « ان جيش الاستعمار

ـ التتمة على الصفحة ٨٥ ـ

(١) راجع مقالات ودراسات الكاتب في أدب غسان كنفاني ، المنشورة بمجلة « الكتاب العربي » القاهرة عدد مايو ١٩٦٧ ، ومجلة « الاداب » البيروتية عدد الثورة الفدائية مارس (اذار) ١٩٦٩ والملحق الادبي لجريدة « الاخبار » القاهرية عدد ١٥ فبراير ١٩٧٠ ، والعدد الاسبوعي لجريدة « الحقيقة » الليبية اعداد ١١ و ١٨ و ٢٥ يوليو وأول و٨ و ١٥ و ٢٢ اغسطس ١٩٧٠.

(٢) راجع دراسة الكاتب « الرواية الصهيونية من الحلم الصهيوني الى الحرب التوسعية » ، مجلة الاداب ، العدد الثاني فبراير (شباط) ١٩٧٢ .

(٣) فرانتز فانون ـ معذبو الارض ، الترجمة العربية للدكتور سامي الدروبي والدكتور جمال الاتاسي ، نشر دار الطليعة ببيروت، الطبعة الثانية يناير ١٩٦٦ ص ٨٦ .

غسان كنفاني اديبا مقاتلا

ـ تابع المنشور على الصفحة ٧ ـ

يصبح كاسرا . فهو يقوم بعمليات تطهير ، ويشن حملات انتقامية، ويقتل النساء والاطفال . والمناضل يعرف ذلك . ان هذا الانسان الجديد يبدأ حياته من نهايتها . انه يعد نفسه ميتا بالقوة . انه يقتل . انه لا يرتضي ان يعرض نفسه للقتل فحسب ، بل هو موقن بانه مقتول لا محالة . لقد بلغ من فرط رؤيته لاحتضارالاخرين انه لا يريد ان يعيش بقدر ما يريد ان ينتصر . غيره سيستفيد من النصر ، لا هو . لقد سئم هو . لكن هذه السآمة هي مصدر شجاعة لا تصدق . نحن نجد انسانيتنا سابقة على الموت واليأس ، أما هو فيجدها بعد العذاب وبعد الموت . نحن كنا ننشر هواء ، أما العاصفة فهو . انه ابن العنف يستمد منه في كل لحظة انسانيته. لقد كنا بشرا على حسابه ، وهو يصبح بشرا على حسابنا ، يصبح انسانا افضل . » (٤) .

لقد حرص غسان كنفاني كاتبا وناقدا ودارسا وفنانا على تحليل ظروف القضية الفلسطينية ودراسة أسباب ثوراتها وانتكاساتها والانطلاق من هذا التحليل الى دراسة ظروف العدو بروح علمية ، للخروج من كل ذلك برؤيا نافذة وتنبؤ صادق وطريق لنضال المستقبل .

ففي كتابه « أدب المقاومة في فلسطين المحتلة » الذي يشير بوضوح الى تفرد غسان كنفاني وحرصه على تقديم الجديدواكتشاف الارض البكر التي لم تطرق من قبل ـ في هذا الكتاب نرى كيف أرقت النكبة عقل غسان ووجدانه ، وكيف عني بتتبع آثار النكبة على الانسان الفلسطيني في داخل الارض المحتلة وخارجها ، فرأى ان نكبة فلسطين (١٩٤٨) لم تكن مجرد كارثة كمية على أهل فلسطين، ولكنها كانت ايضا وبشكل أخطر كارثة كيفية ، بمعنى انه بقدر ما خفض العدوان الصهيوني من عدد العرب في فلسطين نتيجة لعمليات الابادة الاجرامية التي شنت ضد مواطنين عزل ، حتى انخفض عددهم الى حوالي ربع مليون عربي فقط ، فان نوع الباقين قد تأثر هو الاخر نتيجة لفرار اغلب سكان المدن والمثقفين الى البلاد العربية المجاورة ، فلم يتخلف سوى سكان القرى الذين كانوابعيدين عن كل وعي سياسي وفكري ، ومن ثم فقد كان الوضع مهيأ لقوات العدو كي تمارس مزيدا من القمع ضد أي وجود فكري عربي،وايضا كي تثبت تيارات مشبوهة تعمل من داخل التنظيمات الصهيونية والفكر الصهيوني . بينما ينتج عن رحيل القيادات السياسية والفكرية وقطاعات المدن المثقفة الى البلاد العربية ، فترة صمت حزين ، صمت ذاهل من هول الصدمة . ثم تحول الى ادب هادىء حزين .. وفي الجانب المقابل ، في داخل فلسطين المحتلة ، التي تبقى فيها عرب يعملون في الزراعة ، بوسائل متخلفة عتيقة ، ويفتقرون الى وجود ثقافي عربي ، رزح العرب تحت نير القهر الصهيوني والحصار الثقافي الكامل ، المتمثل في تحول المدن العربية ـ التي تفرغ عادة القيادات الثقافية والفكرية ـ الى مدن يهودية محرمة وعدوة . ويتمثل ايضا في قيام جدار ارهابي يفرض عزلة العرب في الداخل عن كل حركة ادبية عربية في الخارج ، ويضعف امكانية قيام وجود ثقافي عربي على أسس متقدمة ، واصبحت حركة النشر كلها في أيد صهيونية ومن خلال اجهزة صهيونية لا تنشر بالطبع ما يعبر عن الوجدان العربي والفكر العربي ، كما ان الرقابة العسكرية الارهابية التي لا بد ان يمر تحت بصرها وسمعها كل عمل أدبي عربي . تقتل كل عمل صادق ولا تسمح الا بنشر مجموعة من التفاهات والاعمال الرخيصة . وفي مواجهة هذا الارهاب الفكري، وبرغم الحصار الثقافي ، بشر غسان كنفاني بالامل في بعث الشخصية الفلسطينية اذ أثبت الادب الفلسطيني وجوده وتسلم مسئولياته مقدرا انه لا بد أولا وآخرا ان يكون أدب مقاومة ضد الاحتلال الصهيوني ، وكان الشعر هو الوجه البارز من وجوه أدب المقاومة الفلسطينية داخل الارض المحتلة . وتوصل غسان كنفاني الى ملحوظة هامة عن يسارية شعر المقاومة قائلا : « انه في تعداد الظواهر المميزة لشعر المقاومة العربي في الارض المحتلة ، ظاهرة عامة تلاحظ بوضوح كلي : هي ظاهرة يسارية شعر المقاومة هذا . » (٥) ان غسان كنفاني يشيد بالجهد النضالي والوجه المقاوم لادب المقاومة الفلسطينية « ان أدب المقاومة العربي في الارض المحتلة يقدم لتواريخ الادب المقاوم في العالم نموذجا متقدما في الحقيقة وعلامة جديدة نادرا ما استطاعت آداب المقاومة المعروفة في العصور الحديثة ان تحقق ما يوازيها في المستوى ، مقارنة بمهماته الصعبة وشديدة التعقيد وظروفه التي لا تشابه بين مالدينا من الامثلة المعاصرة الا ظروف المواطنين السود تحت حكم دولة جنوب افريقيا العنصرية ، بل تفوقها قسوة ووحشية . » (٦) وقد استكمل غسان كنفاني كتابه عن أدب المقاومة بدراسة كتبت بعد النكسة وقدمت للمؤتمر السادس للادباء العرب المنعقد بالقاهرة في مارس ١٩٦٨ ونشرت بمجلة الادب الافريقي الاسيوي (٧) . ولخص أهم صفات أدب المقاومة الفلسطينية انه قدم لاول مرة « نموذج الاديب المقاتل الذي غاب لفترة طويلة عن حياتنا الثقافية . » ويكتشف غسان كنفاني برؤية الفنان المناضل الثورية ان ادب المقاومة ليس فقط يساريا ولكنه ملتزم بصدق وواقعية ومرتبط ارتباطا تاما بحركتي الثورة العربية وثورات التحرير في العالم ، لانه يقوم على اكتاف الكادحين . « فقضية الالتزام ليست نظرية مجردة ، وكذلك ليست قضية التحرير ، والرؤيا الواضحة لابعاد القضيتين كمباديء وكوسائل لا تحتمل عند ادباء المقاومة في فلسطين المحتلة غموضا أو تشويشا أو مساومة ، وهذا بالذات ما جعل ادب المقاومة الذي رأيناه في فلسطين المحتلة خلال السنوات العشر الماضية ادبا لا ينوح ولا يبكي ، لا يستسلم ولا ييأس..» « ان ادب المقاومة في فلسطين المحتلة يرتبط الى بعد اجتماعي ويطرح ولاءه للطبقة الكادحة التي على اكتافها تعلق المقاومة بنادقها ومصيرها . » (٨)

غسان كنفاني يعيش القضية الفلسطينية ، يهبها كل جهده وحياته واهتماماته ، وباحساس من مسئوليته كأديب مثقف وملتزم واتباعا للاسلوب العلمي في معرفة العدو ، وجه غسان كنفاني جانبا من اهتماماته لدراسة العنصرية الصهيونية من خلال الادب الصهيوني ، فوجد أن الصهيونية السياسية لم تكن الا نتيجة لارهاصات ادبية صهيونية . كما تتركز أهمية هذا الكتاب في فضحه لعملية غسل المخ الدائمة التي يقوم بها الادب الصهيوني للعقل الغربي وتهيئته للعدوان الاسرائيلي المتكرر ، وحشوه بالاكاذيب الصهيونية التي تقلب الحقائق التاريخية وتصور العربي في صورة المتعدي المتوحش المتعطش للدماء . وقصد غسان كنفاني من فضح هذه الصورة الواقعية للادب الصهيوني الى اثارة الطريق للاديب العربي الحديث كي تدخل القضية في دائرة اهتماماته وكتاباته، وحتى لا ينفرد العدو بفكر العالم ويشكله وفق مخططاته العدوانية واحلامه في الغزو والتوسع . « لن يكون من المصادف ان نقرأ مثلا

---

(٤) جان بول سارتر ، مقدمة كتاب معذبو الارض ، الترجمة العربية ص ٣٠ .

(٥) غسان كنفاني ، أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ، نشر دار الاداب ببيروت ، الطبعة الاولى ١٩٦٦ ، ص ٤٦ .

(٦) و (٧) غسان كنفاني ، ادب المقاومة في فلسطين المحتلة ، مجلة الادب الافريقي الاسيوي ، العددان الثاني والثالث ، المجلد الاول صيف ١٩٦٨ .

(٨) المرجع السابق ص ٧٨ و ٧٩ .

بعد عدوان ٥ حزيران (يونيو) مقالا عن العرب في مجلة « التايم» الامريكية (١٤ تموز (يوليو) ١٩٦٧) يقرر بفظاظة وبتضليل لا مثيل لهما ما كنا قد قرأناه في الروايات الصهيونية عن العرب على اعتبار ان ذلك مسلمات بديهية لا تناقش .» (٩)

« واذا كان كوستلر ، وغودن ، واوريس ، واذا كانت رواية « الينبوع » و (الانجلوساكسون) و (نجمة في الريح) قد اعطت الغزو الصهيوني مبررا انه « ينقل الحضارة الى الشرق المتخلف»، و « ينقذ العرب » وان الاستعمار الاسرائيلي له (مهمة اصلاحية) فانه لن يدهشنا ان نقرأ الكلمات نفسها بالنص تقريبا في كتاب سياسي كتبه « راندولوف وونستون تشرشل » عن عدوان ٥ حزيران (يونيو) بعد ان نشر فصولا منه في الـ « صنداي تلغراف ـ تموز (يوليو) واب « اغسطس » ١٩٦٧ . » (١٠)

وقد عبرت رواياته وقصصه عن تطور الشخصية الفلسطينية ، وكانت بمثابة دعوة للتحرك من الواقع الفلسطيني المر ونداء للنضال والثورة . واذا كان من المؤسف ان يقتل غسان كنفاني على ارض عربية وليس على ارض فلسطين المحتلة كما اراد ، فقد اشاد غسان كنفاني بموت « الاستاذ سليم » احد شخصيات روايته « رجال في الشمس » لانه مات في قريته الفلسطينية قبل ان يدخلها اليهود بليلة واحدة : « يا رحمة الله عليك يا أستاذ سليم ! يا رحمة الله عليك ! لا شك انك كنت ذا حظوة عند الله حين جعلك تموت قبل ليلة واحدة من سقوط القرية المسكينة في أيدي اليهود .. ليلة واحدة فقط .. يا الله ! اتوجد ثمة نعمة الهية أكبر من هذه ؟.. صحيح ان الرجال كانوا في شغل عن دفنك وعن اكرام موتك .. ولكنك على اي حال بقيت هناك .. بقيت هناك ! وفرت على نفسك الذل والمسكنة وانقذت ما افعل الآن ؟ أكنت تقبل ان تحمل سنيك كلها على كتفيك وتهرب عبر الصحراء الى الكويت كي تجد لقمة خبز ؟ » (١١)

وتصور روايته الاولى « رجال في الشمس » كيف ضاع الانسان الفلسطيني بعد اضطراره لمغادرة ارضه المحتلة ، بحثا عن لقمة خبز ، وعن طريق رصد الواقع الفلسطيني المر لهرب ثلاثة شبان فلسطينيين الى الكويت في خزان سيارة نقل ، لا يلبث الثلاثة ان يموتوا في داخل خزان سيارة الخانق دون كلمة احتجاج واحدة ، فتصرخ الرواية مستفسرة : « لماذا لم يدقوا جدران الخزان ؟ » « وفجاة بدات الصحراء كلها ترد الصدى : لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟ لماذا لم تقرعوا جدران الخزان ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ » (١٢) بهذا السؤال الفاجع تنادي الرواية الفلسطينيين وتحتج على رضوخهم لواقعهم السيىء وتحضهم على الاحتجاج والرفض ، وتقول ايضا ، بان لا فائدة من الهرب من ارض فلسطين المحتلة هربا من الموت جوعا ، فها هم يموتون رعبا بعيدا عن ارضهم الفلسطينية . وتروي الرواية قصص الكثير من الرجال الذين هربوا من ارضهم فلقوا حتفهم في صحراء الغربة . « كان قد بدأ رحلته مع صديقين من أصدقاء شبابه ، من غزة عبر اسرائيل ، عبر الاردن ، عبر العراق .. ثم تركهم المهرب في الصحراء ، وهم لما يعبروا حدود الكويت .. لقد دفن صديقيه بتلك الاراضي المجهولة ..» (١٣ وعن طريق الصور الفاجعة للنكبة التي حلت بالفلسطينيين يحرضهم غسان كنفاني على الثورة ورفض واقع النكبة . « في السنوات العشر الماضية لم تفعل شيئا سوى ان تنتظر .. لقد احتجت الى عشر سنوات كبيرة جائعة كي تصدق انك شجيراتك وبيتك وشبابك وقريتك كلها .. في هذه السنوات الطويلة شق الناس طريقهم وانت مقنع ككلب عجوز في بيت حقير .. ماذا تراك كنت تنتظر ؟ ان تثقب الثروة سقف بيتك .. بيتك ؟ انه ليس بيتك .. اتعجبك هذه الحياة هنا ؟ لقد مرت عشر سنوات وانت تعيش كالشحاذ ..» (١٤)

في روايته الثانية « ما تبقى لكم » يعاود بطل غسان كنفاني الرحيل من الارض المحتلة ـ عبر الصحراء ايضا ـ ولكن رحيل « حامد » بطل « ما تبقى لكم » هذه المرة ليس هربا الى خارج فلسطين المحتلة ولكن من ارض فلسطينية والى ارض فلسطينية ، رحيل بهدف اعادة توحيد الارض المحتلة ، الارض الام ، التي تسبب فقدها في كل سيئات الواقع الفلسطيني التي صورتها الرواية ببراعة وصدق ، رحيل بطل غسان الجديد في « ما تبقى لكم » يجيء بعد تحرك الفلسطيني لاعمال الفداء والتحدي لعنف العدو عن طريق الفدائي « سالم » ، وعندما يواجه بطل الرواية « حامد » العدو وجها لوجه ، فانه لا يهرب ولا يخاف ولا يصمت ولكنه يتحداه وبهذا التحدي العنيف يتحرر « حامد » بطل الرواية ويضع عدوه الاسرائيلي في فخ الانتظار الذي طالما وضعه العدو فيه . ان حوارا خلاقا وغريبا يدور بين البطل الفلسطيني ابن يافا وعدوه الجندي الاسرائيلي الذي اكتشف انه من محتلي يافا ، انه ليس حوارا ،انه محاكمة . « قلت له (للاسرائيلي) : هيا ، كن رجلا طيبا ودعنا نتحدث عن يافا . ان الانتظار الصامت لن يأتي الا بالرعب. ولكنه ظل يحدق الي" بعينيه الضيقتين المتعبتين ، كأنه لم يفهم شيئا . « هيا ! كيف انتهى الامر بكل ذلك الحي ، الذي كان يمتد بين جامع الشيخ حسن وحمام اليهود المحروق في المنشية ؟ » وفجاة، لست ادري ، لماذا بالضبط ، احسست انه يفهمني تماما ، وانه يتابعني وينتظر نهاية لذلك كله . فمضيت : « سيكون ذلك حدثا مفيدا فانا اعرف ذلك الحي تماما ، كنا نعيش هناك .» (١٥) هذا حوار الرجل الفلسطيني القوي المسلح المؤمن بقضيته ، الفدائي الذي لا يهاب الموت او العنف ،والذي قرر اخيرا ان يفك قيوده وان يترك ما تبقى له من النكبة والهزيمة والعار والفقر وضياع الوطن والغربة في ارضه ، لقد وضعت الرواية صورتين للفلسطيني الذي يواجه آثار نكبة فلسطين ، الفلسطيني القاتل ، والفلسطيني المتخاذل الذي رضي بالاستكانة وانتظار خبز الاعاشة وحسنات الاغاثة ، وتقلب في صنوف العار والذل للعدو وللظروف المعيشية البائسة ، والصورة الاخرى للمقاتل الفلسطيني الذي تعمد بالدم والقتال والعنف ، وحتى عندما ساقه العدو الى ساحة الاعدام « اكتسى وجهه فجاة وبلا تردد بتلك الملامح الراعبة الجامدة والمتكبرة التي تتخذها عادة وجوه الذين يعرفون انهم سيموتون في ساحة عامة وتحت انظار الناس جميعا ، وفي سبيل شيء يحترمه الناس كلهم ..» (١٦) وقد اختار « حامد » بطل الرواية ـ رمز جيل جديد من الفلسطينيين ، جيل الدم والعنف ـ اختار بطل رواية « ما تبقى لكم » طريق النضال ، وحين فعل صار هو الاقوى وكف الفلسطيني عن الترقب والانتظار ، ورد العنف الى عدوه الاسرائيلي ، رد اليه سلاحه في نحره . « ولكنه بدل ان ينظر الى

---

(٩) غسان كنفاني ، في الادب الصهيوني ، العدد ٢٢ سلسلة دراسات فلسطينية ، نشر مركز الابحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية ص ١٥٠ .

(١٠) المرجع السابق ص ١٥١ .

(١١) غسان كنفاني ، رجال في الشمس ، نشر دار الطليعة ببيروت، الطبعة الاولى ١٩٦٣ ص ١١ .

(١٢) المرجع السابق ص ١٠٦ .

(١٣) المرجع السابق ص ٧٠ و ٧١ .

(١٤) المرجع السابق ص ١٤ و ١٥ .

(١٥) غسان كنفاني ، ما تبقى لكم ، نشر دار الطليعة ببيروت الطبعة الاولى ١٩٦٦ ص ٧١ .

(١٦) المرجع السابق ص ٤٥ .

كفي ، مضى يراقب السكين الذي أخذ نصلها الفولاذي يتوهج في الضوء ملقاة بين قدمي ، فتناولتها وسحبت نصلها من جديد فوق حافة حذائي ، فانطلق الصرير المحذر كأنه عويل أحيز ، وعندها فقط نظر الى عيني . ولمحت في وجهه من جديد ، تلك المسحة الخرساء من الرعب العاجز ، فأدركت انه سيكون بوسعي ذات لحظة ان أجز عنقه دون رجفة واحدة ، وان هذه اللحظة ستأتي لا محالة، تحت وقع البريق المرعب في عينيه ، وصرير نصل السكين فوق حذائي ، والشمس اللاهبة التي كانت تجلد مؤخرة عنقي بلا هوادة .» (١٧)

صدرت روايتا « رجال في الشمس » و « ما تبقى لكم » قبل النكسة ، وسنختار من أدب غسان كنفاني مجموعتيه القصصيتين « عن الرجال والبنادق » و (أم سعد) ، ونلاحظ ان انغماس غسان بالنضال الثوري الفلسطيني كقائد من قادة الثورة الفلسطينية المسلحة وتتابع الاحداث لم يعد يترك له الوقت الكافي للابداع الروائي ، لذا اكتفى بكتابة القصص القصيرة ورسم بعض اللوحات السريعة مع الدراسات النقدية والسياسية والمقالات الصحفية . ليست هذه كل اعمال غسان كنفاني الابداعية ، فقد صدرت له بالاضافة الى المجموعتين المذكورتين ثلاث مجموعات قصصية أخرى هي « موت سرير رقم ١٢ » ، « أرض البرتقال الحزين » ، و «عائد الى حيفا » ، ومسرحية واحدة بعنوان (الباب) . كما نشرت مجلة « الحوادث » اللبنانية رواية مسلسلة له بعنوان « من الذي قتل ليلى الحايك ؟ » ولم تجمع بعد في كتاب . ولكن نحن هنا بصدد انتقاء بعض النماذج الدالة على فكره النضالي . وقد أشار غسان كنفاني صراحة كأنما ليرشدنا الى اهمية روايتيه « رجال في الشمس» و « ما تبقى لكم » ـ عندما ذكر في ختام روايته (ما تبقى لكم) انه « يعتبر (ما تبقى لكم) و « رجال في الشمس » أحسن ما كتب .» (١٨)

في مجموعته « عن الرجال والبنادق » ـ الصادرة عن دار الاداب في اكتوبر (تشرين الاول) عام ١٩٦٨ سنجد الحس الاجتماعي والمفهوم الاجتماعي للثورة الفلسطينية يتجسد في مفهوم غسان كنفاني من خلال قصص المجموعة ، وقد أعانته بشاعة النكسة على رؤية حقيقة المأساة والمتسببين فيها ، لقد عرف السبب فراح يطرحه وينظر بوعي ثوري علمي الى المنتسبين خطأ الى صفوف الثورة ركوبا للموجة بينما يتاجرون بها لأنها لا تعنيهم في شيء ، فرأى بالتالي الثوار الحقيقيين والذين تتلخص حياتهم في الثورة . ان البورجوازية تلهو ، بينما الفقراء والبؤساء يجدون في العمل من أجل الثورة. لقد بدلت النكسة غسان كنفاني ، واخذ يشعر بالذنب لانه آمن في فراشه بينما غيره يقاتل ليزيل عنه عار الهزيمة ، لم تعد الكتابة الثورية كافية ، بل الفعل الثوري : « نمت متأخرا جدا ، ودق الهاتف باكرا جدا ، كان الصوت على الطرف الاخر ، منتعشا ، يكاد يكون مرحا ، فخورا ، ليس في طياته أي شعور بالذنب. قلت لنفسي ـ وأنا نصف نائم ـ هذا رجل يصحو باكرا . لا شيء يشغله بالليل . كانت الليلة ممطرة وعاصفة وراعدة ، ترى ماذا يفعل ـ في مثل هذه الظروف ـ الرجال الذين يزحفون تحت صدر العتمة ليبنوا لنا شرفا نظيفا ملطخا بالوحل ؟ كان الليل ماطرا ، وهذا الرجل على الطرف الاخر من الهاتف : قال لي : لدي فكرة سنجمع العابا للاطفال ونرسلها الى النازحين في الاردن ، الى المخيمات ، انت تعلم ، هذه ايام الاعياد . كنت نصف نائم . المخيمات . تلك اللطخات على جبين صباحنا المتعب ، الخرق البالية التي ترف مثل رايات هزيمة ، المرمية بالصدفة فوق سهوب الوحل والغبار والشفقة . » ، « وأنا نائم قفزت الى رأسي الجملة المناسبة : أمضي السيد فلان عطلة رأس السنة وهو يجمع العابا للنازحين ،وستقوم نخبة من سيدات المجتمع بتوزيعها في المخيمات .» (١٩) لقد طلبت البورجوازية من الصحفي اعلانا عن قيامها بتوزيع الهبات ، وهكذا تغسل ضميرها الملوث من عار الهزيمة ، كما فعلت في عام ١٩٤٩ في مخيمات اللاجئين التي ضمت غسان كنفاني ذات يوم . « أيمكن ان تكون هذه وجوهنا حقا ؟ كيف استطعنا أن ننظفها بهذه السرعة من الوحل الذي طرشه حزيران فوقها ؟أصحيح أننا نبتسم؟..»(٢٠) وهكذا كانت النكسة ألما يعتصر فؤاد الاديب الثوري .فراح يستعرض صور النضال الفلسطيني من قصص المجموعة القصيرة او لوحاتها بالاصح . لقد تحول الى معلم ودارس لتجارب النضال الفلسطيني السابقة ، من اللوحة الاولى « الصغيرة يستعير مرتينة خاله ويشرق الى صفد » تتعرض القصة لواقع الكفاح الفلسطيني البدائي قديما ضد المستعمر الصهيوني بصورة فردية واسلحة عتيقة . ولكن مسألة السلاح لا تهمه ، بل ما يهمه هو ضرورة اشتراك الجميع في المعركة « ولو حمل كل رجل من الجليل عشرين فشكة واتجه الى قلعة صفد لزقناها في لحظة واحدة . » (٢١) وايضا انتقد غسان برجزة ابن القرية العربي ومفارقته لقريته عندما يكتمل تعليمه ، ليعيش كبورجوازي في المدينة النظيفة حيث النساء اليهوديات الواعيات بدورهن ، بحثا عن المال والمتعة ، غير واع بما يفعله اليهودي المستعمر الذي يجيء مباشرة الى القرية العربية . وفي اللوحة التالية تستمر المقارنة ، فالبورجوازي العربي يتجاهل قضيته الفلسطينية بينما يعمل العدو الاسرائيلي كل شيء من أجل قضيته . ان الفلاح هو الذي يبقى في الارض يدافع عنها ، انها قضيته ، بينما لا يهتم اهل المدن « غريبون اهل المدن ، كان الامر لا يعنيهم . » (٢٢) ويعي غسان هنا بدقة كلمات المناضل العظيم « فرانتز فانون » : « ان طبقة الفلاحين في البلاد المستعمرة هي الطبقة الثورية الوحيدة . ان هذه الطبقة لا تخشى ان تخسر بالثورة شيئا ، بل تطمع ان تكسب بالثورة كل شيء ـ والفلاح ، المنبوذ ، الجائع ، هو الانسان المستغل الذي يكتشف قبل غيره ان العنف وحده هو الوسيلة المجدية . » (٢٣) هذا ما اكدته مجموعة قصص كنفاني « عن الرجال والبنادق » ، قالت « أم سعد » ـ وهي تعني فلسطين « أنا متعبة يا ابن عمي ، اهترأ عمري في ذلك المخيم . كل مساء اقول يا رب ! وها قد مرت عشرون سنة ، واذا لم يذهب سعد ، فمن سيذهب ؟ » « خيمة عن خيمة تفرق » (٢٤) وهكذا لا بد من جبل الدم والعنف فاذا لم يقاتل الفلسطينيون فمن يقاتل ، فلن يخسر الفلسطينيون شيئا سوى خيامهم المهترئة . أما « سعد » فقد ولد من جديد بانضمامه الى صفوف المقاتلين ، تحرر من الخوف والضعف ومن حكم تقاليد العجائز البالية التي كف « حامد » بطل غسان عن سماعها بخروجه الى دائرة الفعل والعنف وتفجيره دبابة للعدو . فبالعنف يتحرر المقاتل الثوري من كل الخرافات والحكم البالية ، وبالدم يتمدد الثوري العربي الجديد .

وفي مجموعته القصصية « أم سعد » يوضح غسان كنفاني ان « أم سعد » برغم انها شخصية فلسطينية حقيقية الا انها مع ذلك

---

(١٧) المرجع السابق ، ص ٧٢ .
(١٨) المرجع السابق ، ص ٧٧ .
(١٩) غسان كنفاني ، عن الرجال والبنادق ، نشر دار الاداب ببيروت، الطبعة الاولى ١٩٦٨ ص ٧ و٨ .
(٢٠) المرجع السابق ص ٩ .
(٢١) المرجع السابق ص ٢٤ .
(٢٢) المرجع السابق ص ٣٥ .
(٢٣) معذبو الارض ، الترجمة العربية ص ٦٣ .
(٢٤) عن الرجال والبنادق ، ص ١٣٨ او ١٣٩ .

تمثل كل فلسطين ، فهي من صفوف الجماهير الكادحة التي يجب ان يتعلم منها الثوري والتي عانت مرارة الهزيمة « ولذلك فقد كان صوتها دائما بالنسبة لي هو صوت تلك الطبقة الفلسطينية التي دفعت غاليا ثمن الهزيمة . » (٢٥) وتصور « ام سعد » الرؤيا الفلسطينية بعد الهزيمة لتقدم الاصرار بدلا من الانهيار وتصمم على المقاومة بالسلاح لا بالكلمات ، بل انها لتكره الكلمات الخطابية قائلة : « بدأت الحرب بالراديو وانتهت بالراديو ، وحين انتهت قمت لاقفله . » (٢٦) والامل الذي ترقبه « ام سعد » هو في رحلة ابنها « سعد » للكفاح المسلح من اجل تحرير الارض المحتلة . فالامل الذي ترنو اليه فلسطين (ام سعد) بعد الهزيمة يتمثل في جيل الابناء الشبان ، الذين سيقاتلون رغم كل شيء ، جيل العنف والدم ، ولكن « سعد » يقع في الحبس ويرفض ان يوقع مع زملائه اقرار بالرضوخ للامر الواقع وتسر « ام سعد » لان سعدا صمم على الثورة وعلى القتال . ولانه قرر مع رفاقه الشبان الا يوقعوا اية اقرارات بالرضا بالامر الواقع واية تسويات ، فهو يرفض الواقع ، واقع الهزيمة ، وهو بذلك يصمم على النضال ضده . وحين ذهب « سعد » لينضم الى صفوف الثوار بالفعل ، فرحت « ام سعد » ولم تحزن . ويصور لنا غسان كنفاني بدقة حنان الام وقلقها على ابنها ، مع املها في ان يحقق هدفه في محاربة العدو على الفور . وغسان كنفاني حريص في كتابه « ام سعد » على الجمع بين امرين ، الواقع والرمز . فهو يقدم لنا « ام سعد » أما واقعية تعطف وتتشوق وتقلق على ابنها وتتمنى ان تطعمه بيدها . ثم يقدمها لنا في صورة الام الكبيرة، الرمز ، فلسطين الشامخة رغم مآسي عشرين عاما من الغربة والتشرد وحياة الخيام . وهو يصور لنا آلام الام الرمز ، الام الكبرى ، وقد عاشت عشرين عاما في خيام في مهب الريح والمطر والوحل والفقر والجوع والضياع ، شامخة رغم كل ما عانته .

أما « سعد » فقد رأى الوحل يزحف على الخيام ، وحذر الرجال قائلا . « ذات ليلة سيدفنكم الوحل . » وصمم على رفع الوحل . وراح يحارب ويهدي في كل ليلة انتصارا صغيرا الى امه المنتظرة القلقة الواثقة رغم كل هذا من شجاعة ابنها الثوري الفلسطيني ومقدرته الفائقة على تحقيق ارادته . ورأى « سعد » امه في كل مكان بالارض المحتلة . تطعمه حين يجوع ، وتحيطه ورفاقه بحنانها ورعايتها. فالرمز في قصص غسان كنفاني بسيط كالقصص نفسها . والقصص عبارة عن لوحات فلسطينية تربطها شخصية واحدة هي « ام سعد » ، التي لا تكتفي بالتأييد المعنوي للثوار وبنضال ابنها ، ولكنها تعمل ما بوسعها دفاعا عن المخيمات كلما هاجمتها طائرات العدو الوحشية ومن تراث المقاومة الفلسطينية الاولى يردد غسان كنفاني الدروس محذرا من وضع السلاح او اتخاذ طرق جانبية غير القتال . ويرينا غسان كيف ظهرت الحرب الثورية العقلية الفلسطينية ـ لام سعد ـ من الخرافات ، التي طرحت الحجاب القديم الذي كتبه مشعوذ وعلقته عشرين عاما حتى فقدت كل شيء . لذا استبدلته « ام سعد » بحجاب جديد به رصاصة رمزا للقوة والنضال لا للتواكل والاستسلام . بالجملة لقد صور لنا غسان كنفاني في مجموعته القصصية « ام سعد » كيف غيرت الثورة الفلسطينية من وضعية الفلسطيني ، من حياته وفكره وسلوكه اليومي . لقد وجد الاطفال طريقهم في التدريب على السلاح . وكف الآباء مثل ابي سعد عن اخلاق المقامرة والضياع ، وصاروا يجيدون احاديث النضال والسلاح.

وكما فجر غسان كنفاني في بيروت بركانا من الكتابات النقدية والابداعية ، كذلك فجر بطلنا الشهيد ثورة في الثورة بنشاطه السياسي وكتاباته السياسية . وكون غسان كنفاني احد قادة الثورة الفلسطينية لم يمنعه من الرؤية العلمية والنقد الذاتي للثورة ، ذلك انه كان يعلم بان الثورة ـ بعد تصفية ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ ـ في مازق ، وانها تواجه بعد الهزيمة العسكرية في الاردن ، خطر التصفية الجسدية . كان غسان يعي ذلك جيدا ولكن لم يكن يخاف على حياته من التصفية الجسدية التي توقعها بتحليله العلمي الصادق . كان كل حرصه على استمرار الثورة الفلسطينية وتجنيبها مازق التصفية الجسدية والسياسية . وفي ندوة عقدتها مجلة « شؤون فلسطينية » لمناقشة « المقاومة الفلسطينية في وضعها الراهن » ، وجه غسان نقده الذاتي للثورة مؤكدا النظرة العلمية للثورة ومهاجما الشعارات والارتجال : « .. عدم العلمية في الثورة . الثورة علم ، هذا الكلام يقوله كل واحد منا ولا يبدو اطلاقا انني اطرح شيئا جديدا ، والثورة علم والصحيح ايضا هو انه كما ان العسكري ليس بالضرورة مطربا فان الفكر الثوري والفكر العسكري المتعلق بالثورة ليس عملية ارتجالية وعملية اطلاق شعارات تتبدل بين يوم واخر . » كان شديد الوعي بان الخطوة في طريق انهاء الثورة الفلسطينية هي التصفية الجسدية ، « نحن نعرف ايضا عسكريا بان الهزيمة العسكرية في ايلول لا تعني شيئا اذا لم تنعكس نتائجها العسكرية سياسيا ونحن نعرف ايضا ان معركة ايلول هي معركة قد تنهزم فيها المقاومة عسكريا ولكن عملية تصفية المقاومة جسديا وانهائها هي العملية التالية . » كان واعيا بأزمة محاصرة الثورة الفلسطينية ، لذا فقد وجه النقد الذاتي للثورة لاستكشاف طريق الثورة في الخروج من ازمتها ، وفي تلك الندوة ـ التي عقدتها مجلة شؤون فلسطينية ـ اخذ غسان يهاجم الشعارات والفكر النظري بدون عمل وبدون قتال « ولكن المهم بالدرجة الاولى هل تقاتل او لا تقاتل .. فالقضية ليست رفع شعارات بل تتطلب نضالا فعليا يجب ان لا نكتفي بتعبئة الناس بالشعارات بل المطلوب هو العمل على تنفيذ اهداف متساوية مع الامكانيات المتوفرة . (٢٧) ومع ذلك لم يفقد غسان تفاؤله . فرغم ازمة المقاومة واخطائها وخلافاتها ، فهو موقن بان متابعة تطور حركة الثورة الفلسطينية في السنوات القليلة الماضية « لتبين ان مقدارا مرموقا من التحسس قد طرأ ، ولا شك انه سيستمر . » واكد ان الخلاف بين اليمين واليسار داخل حركة الثورةالفلسطينية لا تحسمه التصريحات الصحفية او المؤتمرات ، ولكن بالفعل في ميادين القتال : « الجزء الذي سيثبت جدارته للقيادة هو الجزء الذي سيبرهن يوما للجماهير من خلال ممارسته ان الخط الاستراتيجي الذي يتمشى عليه هو الصحيح . هذه قضية لا تقرر في المجلس الوطني الفلسطيني ولا تقرر في اللجنة التنفيذية ولا بالمقالات ولا التصريحات الصحفية . هذه تقرر من خلال الممارسة الميدانية الصبورة والدؤوبة . » (٢٨)

وفي دراسته الهامة « ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ في فلسطين ، خلفيات وتفاصيل وتحليل » يلفت غسان كنفاني انظارنا لاول مرة الى الخلفية الاجتماعية والاقتصادية والطبقية لنزع الارض العربية وتغلغل اليهود فيها لان الفلاحين الفلسطينيين لم يكونوا يملكون سوى نسبة ضئيلة من الاراضي ، وبالرغم من ذلك فقد كانوا من الوعي بحيث وجدوا في الغزو الصهيوني خطرا قوميا دعاهم الى بيع اراضيهم البسيطة ليشتروا السلاح لمقاومة الغزو الصهيوني ، بينما يبيع الاقطاعيون العرب الارض العربية للراسمال اليهودي « من خلال انسحاق الفلاح العربي بين كابوس مثلث : الغزو الصهيوني للارض ، والملكية الاقطاعية العربية ، وفداحة الضرائب التي تفرضها حكومة الانتداب ، فان التحدي الذي يأخذ مكان الصدارة هو التحدي القومي . ان كثيرا من الفلاحين العرب الصغار ، في انتفاضة اب ١٩٢٩ وانتفاضة ١٩٣٣ باعوا اراضيهم للملاكين العرب

---

(٢٥) غسان كنفاني ، ام سعد ، نشر دار العودة ببيروت ، الطبعة الاولى ١٩٦٩ ، ص ٨ .

(٢٦) الرجع السابق ، ص ١٤ .

(٢٧) مجلة شؤون فلسطينية ، العدد الثاني ، مايو (ايار) ١٩٧١ ، ص ٦٢ و ٦٣ .

(٢٨) المرجع السابق ، ص ٧٤ .

الكبار كي يشتروا بأثمانها سلاحا لمقاومة الغزو الصهيوني والانتداب البريطاني . ان الغزو الذي يتحدى طراز عيش له نفوذ الدين والتقليد والشرف ، هو الذي مكن القيادات الاقطاعية — الاكليركية من مواصلة لعب دورها بالرغم من الجرائم التي ارتكبتها ، ففي كثير من الحالات كانت العناصر الاقطاعية التي تشتري تلك الارض تبيعها للراسمال اليهودي . (٢٩) لقد وقع عبء الاستعمار الاستيطاني اليهودي على عاتق العمال والفلاحين الفلسطينيين دون غيرهم ، بينما كانت الاقطاعية الفلسطينية المتسببة في ضياع فلسطين ببيعها الاراضي لليهود وبتحالفها مع الامبريالية . وقد توصل غسان كنفاني الى نتيجة هامة في دراسته لاسباب فشل ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ الفلسطينية وآثارها التي لازمت القضية الفلسطينية حتى هزيمة عام ١٩٦٧ بارجاعها الى القيادات الرجعية المحلية ، والانظمة العربية ، والحلف الامبريالي الصهيوني . وتتميز هذه الدراسة السياسية الهامة بعدة ميزات : جلد غسان كنفاني على البحث والتحليل واستخلاص النتائج ، الفهم الاجتماعي والنضالي لغسان ، تحرر غسان من القولبة العقائدية في فهمه للعلاقة الجدلية المستمرة بين الدين والنوازع الوطنية في الدول المتخلفة من خلال دراسته لاهمية الحركة القسامية (نسبة الى الشيخ القسام مفجر ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ الذي وضعه غسان في مرتبة جيفارا) ، وايضا في اشادته بالطابع النضالي للادب الفلسطيني ودوره الطليعي مع نقده للثقافة الشعبية التقليدية الانهزامية ، التأكيد على دور الطبقات الكادحة في الثورة الفلسطينية . الاستفادة من تاريخ الثورة الفلسطينية في تخطي اسباب هزائمها وانتكاساتها ، والتفاؤل الثوري العلمي في امكان احراز النصر الكلي عن طريق تحقيق الانتصارات اليومية الصغيرة وتراكمها . الا يشير كل هذا الى تفرد غسان كنفاني كاديب ثوري مقاتل، مسلح بوعي وفكر علميين ، لا تنفصل عنده القضية عن الحياة ، بل يتوحد الفكر والفعل والسلوك في سيمفونية ثورية عظيمة . والان يتعمد الثوري بالدم والعنف متخطيا كل سلبيات الادب والفكر والعمل الثوري.

ان غسان كنفاني انموذج فذ للاديب المقاتل ، والمناضل بالكلمة وبالسلاح ، هذا الانموذج العظيم للاديب العربي المتميز بالوعي والثقافة والاصرار والفعل الثوريين . يجب ان نخصص له الدراسات والكتب والاعداد الخاصة لتثبيت دعائمه في وجداننا وعقلنا . وفي هذا السبيل ارجو ان تصدر دار الاداب ـ وقد نشرت كتابين من مؤلفاته ـ عددا خاصا ممتازا من مجلة الاداب لدراسة انموذج التجربة النضالية للثوري العربي الجديد المتجسد في غسان كنفاني ، فليكتب عنه رفاقه في السلاح ونقاد الادب وكتاب السياسة والشعراء والفنانون ، فهذا الانموذج يجب الا يضيع في زحمة الاخبار اليومية كأي خبر عادي . وايضا يجب تجميع كل كتاباته في مجلدات تستوعب اعماله كاملة ، وتلك مهمة تنوء بحملها اية مؤسسة نشر فردية ، ومن ثم فان عاتقها يقع على مركز الابحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية كجزء من المهمة الثقافية والثورية الجليلة التي يقوم بها مركز الابحاث الفلسطينية .

لقد توارت تجربة غسان كنفاني النضالية خلال اوارها وممارستها في حياته لاسباب كثيرة ، ولم يشعر بقيمتها ودلالتها كينبوع للنضال وميلاد للاديب الثوري المناضل المتوحد فكرا وسلوكا والذي يعيش قضيته ليل نهار حتى لتكاد تجري في دمه ـ لم يشعر باهمية هذه التجربة النضالية وثرائها وخطورتها سوى العدو (٣٠) وقلة من المتهمين بنضال غسان كنفاني وادبه ، ذلك الانموذج الجديد للكاتب الثوري العربي الملتزم بالكلمة وبالفعل بتطابق تام بلا انفصال شبكي كالمعتاد في حياتنا الفكرية والسياسية . والان يجب الا تفلت منا هذه التجربة بحال من الاحوال . يجب ان نستبقيها وان نستثمرها في خلق جيل جديد من الكتاب الثوريين العرب ، الكتاب المقاتلين . فهكذا يكون احترام تضحية غسان واستشهاده ، لقد دفع دمه ليتعمد به الثوري العربي الجديد ، بالعنف والدم والفكر الثوري المناضل . ان دم غسان كنفاني وقود ضروري لاشعال الثورة والعنف وليلاد نوعية جديدة من الثوري العربي ، ثوري لا يكتفي بلغة الكلام والبيانات والبحث عن التسويات والرعب من العنف والدم ، بل انه يقابل العنف بالعنف ، لان هذا هو الطريق الوحيد لتحرير الجماهير من الاستكانة والذل والرعب والخرافات ، كما كتب « فرانتز فانون » : « ولكن حين يجي كفاح التحرير ، فان هذا الشعب الذي كان قبل ذلك مقسما الى طوائف وهمية ، هذا الشعب الذي كان فريسة رعب هائل لا يغلب ، وكان مع ذلك سعيدا بضياعه في زوبعة الاوهام ، يتبدل اثناء كفاح التحرير ، وينظم نفسه تنظيما جديدا ، ويخلق في وسط الدم والدموع مهمات واقعية جدا ، مباشرة جدا .. » (٣١)

وبعد ، لم اقصد بهذه الصفحات كتابة دراسة نقدية تتسم « بالبرود الموضوعي » ـ كما كان يقول الشهيد غسان كنفاني في كتابه « ادب المقاومة في فلسطين المحتلة ـ » او صياغة كلمات الرثاء ـ الذي وصمه غسان « بنواح الارامل » في روايته « رجال في الشمس » ـ فرغم ضخامة الكارثة فرديا وثوريا وقوميا وفنيا ايضا ـ رغم كل ذلك ، فاني اريد لهذه الصفحات الارتفاع الى مستوى التجربة الثورية ، والتضحية النضالية ، والتعميد بالدم الثوري العربي الجديد ، الذي بدأ يعي ضرورة العنف الثوري ويوقن انه الطريق الوحيد لمواجهة العنف الاستعماري . ولقد تغير العدو من اجيال الحلم والفكر الى جيل الدم والعنف فلا بد من مواجهته بجيل عربي مماثل بالدم والعنف . وقد تابعت رغم البعد صورة الجنازة التي تحولت الى مظاهرة ودعوة لمواصلة النضال المسلح ، واكثر ما هزني في الجنازة ـ وشدني الى قيمة تضحية غسان كنفاني الثورية ، صورة ابنه فايز ، ابن العاشرة ـ ممثل جيل الدم والعنف ـ مرفوعا على اكتاف المتظاهرين والمقاتلين ، رافعا اصبعيه بعلامة النصر (٧) . نعم ان الثوري العربي يتعمد بالدم ، والاصرار يتزايد والقضية ترسخ ، فبذلك تكون تضحية غسان كنفاني النضالية والثورية ، دفعة قوية لقضية النضال العربي ، ويصبح دم الشهيد تعميدا للثوري العربي الجديد .

---

(٢٩) مجلة شؤون فلسطينية ، العدد السادس يناير (كانون الثاني) ١٩٧٢ ، ص ٥١ و ٥٢ .

(٣٠) كتبت صحيفة العدو الاسرائيلي « دافار » قائلة : « ان نهاية غسان كنفاني تعد نهاية منطقية لحياته التي كرسها للجريمة (؟!) (النضال الثوري) . فهناك عدالة ثابتة (كذا !) تحول الصرخة الى انفجار ويضطر المجرمون (المناضلون) الى دفع ثمن اعمالهم.» نقلا عن جريدة « الانوار » البيروتية ، عدد ١٠ يوليو (تموز) ١٩٧٢ .

(٣١) معذبو الارض ، الترجمة العربية ص ٥٩ .

القاهرة — أحمد محمد عطية

مكتبة النوري

دمشق ـ تجاه البريد العام

وكيلة منشورات دار الآداب وكبرى دور النشر اللبنانية والعربية في القطر السوري .